نحو قراءة لواقع العلوم الاجتماعية ومستقبلها في العالم العربي

الحياة، الأربعاء 25 مارس/ آذار 2015

كرم الحلو*

لماذا عجزت سوسيولوجية المجتمعات العربية عن إنتاج نظرية واحدة للعالم الاجتماعي؟ ولماذا بقينا دائماً ننظر إلى واقعنا بعيون غيرنا، وببراديغمات بناها فاعلون ينتمون إلى واقع مختلف عنا وعن واقعنا؟ ما الذي يجعل عالم اجتماع مثل بورديو، بمفرده، يفعل بواقعه الفرنسي، ما لم تستطع الجماعة العلمية العربية مجتمعة أن تفعله؟ أليس حرياً بعالم الاجتماع العربي أن يعلن فشل استراتيجياته البحثية في الإمساك بالواقع، فيما التغيير يمر من بين أصابعه من دون أن يمسك بدينامياته الداخلية؟ أليس من الضروري اليوم أن تعمل مراكزنا البحثية العربية الكبرى على إنتاج معرفة مبتكرة تنطلق من الواقع لا من الأيديولوجيا ومقولاتها؟

تصدى لهذه الأسئلة الإشكالية فريق من السوسيولوجيين العرب في كتاب «مستقبل العلوم الاجتماعية في الوطن العربي» (مركز دراسات الوحدة العربية – 2014) حيث اللافت قلة الأعمال الحديثة الجادة في علم الاجتماع العربي إذ لم تبرز في العالم العربي مجموعات منفصلة للعلوم الاجتماعية، إلا في سبعينات القرن الماضي، فيما علم الاجتماع لا يزال متنوعاً ومبعثراً. وفي حصيلة للمعارف في العلوم الاجتماعية العربية، يمكن الإشارة إلى صدور كتاب «نحو علم اجتماع عربي» في ثمانينات القرن الماضي عن مركز دراسات الوحدة العربية، وكذلك إلى تنظيم ملتقيين في وهران في الجزائر عامي 1987 و1988 حول «ملامح العلوم الاجتماعية واتجاهاتها في العالم العربي».

وتظهر الدراسات التي أجراها سارى حنفي في العقد الأول من هذا القرن أن المشرف على الأنشطة البحثية نوعان من المنظمات: الأول منظمات بحثية متخصصة جامعية، فيما الثاني منظمات غير حكومية. ففي لبنان ينتسب 85 في المئة من الباحثين إلى جامعات لبنانية، وبينما غالبية المنظمات البحثية غير حكومية في الأراضي الفلسطينية وفي الأردن ومصر، تضطلع الجامعات بدور رئيسي في بحوث العلوم الاجتماعية في المغرب وسورية وليبيا ولبنان.

تشكلت المراكز البحثية العربية في السنين الأخيرة، ويدير بعضها باحثون عرب، ومن أهمها «مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية» (مصر) – و «مركز دراسات الوحدة العربية» (لبنان) و «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» (قطر) و «منتدى الفكر العربي» (الأردن). وقد استغلت النخبة المستبدة وبعض السلطات الدينية الوضع الإشكالي للعلوم الاجتماعية كوسيلة لإلغاء شرعيتها، فزُجّ بعلماء الاجتماع النقديين في السجون أو خرجوا إلى المنفى أو اغتيلوا. ومع أن علم الاجتماع من الأدوات الرئيسية في الإصلاح الديني في العالم، فالحال ليست كذلك في العالم العربي الذي لا يزال يتميز بخصوصية واستثنائية ثقافية تصرف الأنظار عن النقاش الحقيقي المتعلق بالمجتمعات والسياسة والثقافة ولا سيما على صعيد تحليل الطبقة الاجتماعية.

يعاني علم الاجتماع العربي من انعدام التواصل والنقاش بين الباحثين العرب، ويتجنب اللجوء إلى المجتمع بحثاً عن معطيات تجريبية، حتى أن علماء الاجتماع غالباً ما يقعون في فخ الوعظ، يثيرون الأسئلة بدل تقديم أجوبة ملموسة. وتظهر النتائج أن إسهام علماء الاجتماع العرب في النقاش محدود، وهو في المغرب أكثر مما هو عليه في المشرق، وأكثر في البلدان التي يوجد فيها حرية التعبير من الدول الاستبدادية.

بإلقاء نظرة خاطفة على السير الذاتية للباحثين الذين يجرون بحوثاً سياسية لمصلحة الدولة والمنظمات الدولية، يتبيّن أن نحو ثلاثة أرباع هؤلاء لم ينشروا بحوثهم في مجلات أكاديمية، وانه ليس هناك اثر لعمل ميداني، وان اغلب المخرجات هي إعادة إنتاج لأعمال باحثين آخرين. ونادراً ما نصادف كتباً ألفها باحثون اجتماعيون تقرأ خارج الوسط الأكاديمي، بحيث تثير النقاشات العامة حول إشكاليات أساسية للمجتمع العربي أو المحلي.

إزاء هذا الواقع الإشكالي للعلوم الاجتماعية في العالم العربي، سعى سعد الدين إبراهيم إلى إبراز المرجعيات الغربية لهذه العلوم، مركزاً على علم الاجتماع في مصر والعراق وسورية ولبنان والمغرب وتونس، ولئن كانت البداية مع ابن خلدون في القرن الرابع عشر، إلا أن أهل الاختصاص لم يكتشفوا هذا الإرث سوى على أيدي أساتذة غربيين.

وتطرق الهواري عدي إلى الجهد الحثيث لمحمد عبده نحو تخليص العلوم الاجتماعية من قيود التيولوجيا والتمييز بين عالم الخالق وعالم الإنسان والطبيعة الذي يبقى مجالاً للعقل.

وتساءل أحمد موسى بدوي عن الشروط التي تمكن الباحث العربي من بلوغ المستوى العالمي، متوجهاً إلى العوائق الإبستمولوجية في الإنتاج السوسيولوجي العربي، دارساً مراحل تطور العلوم الاجتماعية ولا سيما في مصر والسودان من خلال المقارنة بين التجربتين في ما يتصل بالتدريب الميداني والكتابة في هذا المجال.

وتبني لاهاي عبد الحسين على معطيات استقتها من تحقيق ميداني لعينة من طلبة الدكتوراه في علم الاجتماع للسنة التحضيرية 2012 – 2013 في العراق، لمناقشة الأسباب التي أدت إلى تدهور الإنتاج المؤهل للنشر في مجلات علمية محكمة.

ويقدم عبد الحكيم حسبان قراءة في حقلي السوسيولوجيا والانثروبولوجيا في الأردن منذ بدايته مع الرحالة الألمان والإنكليز إلى غاية نشوء الجامعة الأردنية عام 1962، ثم التوسع الذي عرفته المؤسسات في البحث السوسيولوجي والأنثروبولوجي.

في تحليله للإنتاج المعرفي في العلوم الاجتماعية في فلسطين رأى ساري حنفي أن المؤسسات البحثية في فلسطين لا تشتغل في ظروف عادية، وقد دفعها ارتهانها إلى جهات داعمة لأنشطتها الى تبني مفاهيم ومفردات تخدم أجنداتها السياسية.

أما خالد كاظم أبو دوح فيستعرض المداخل النظرية في التراث السوسيولوجي من أجل قراءة وتحليل الثورات العربية ورصد العوارض والدوافع المفضية إلى الثورات في البنية الاجتماعية لمجتمعاتنا. كما تتبع محمد اعراب مسار بروز حقلي السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا في المغرب مركزاً اهتمامه على الأعمال التي أنجزت بعد الاستقلال، مشيراً إلى سوسيولوجيا الحقبة الاستعمارية التي لم تكن سوى غطاء علمي لأغراض استعمارية.

نرى ختاماً أن الكتاب يشكل إضاءة على واقع العلوم الاجتماعية في العالم العربي، ويحرّض في الوقت نفسه على تكوين جماعة علمية عربية قادرة على أن تخلق دينامية فكرية في دراسة الواقع العربي. الأمر الذي نحن أحوج ما نكون إليه في ظل التحولات الدرامية الراهنة في مجتمعاتنا.

* كاتب لبناني